الفصل الثالث:

معالم سلفية عند الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار

د. بسام العموش(*)

المقدمة:

إن دراسة هذا الشيخ وطروحاته السلفية وإبرازها ما هو إلا مساهمة في إظهار الفكر الجيد والمعتقد الصحيح والوسطية الإسلامية التي يحتاجها المجتمع عبر الزمان والمكان.

وإذا كنت أقدّر هذا الشيخ حق التقدير واعترف بعلمه وجهده وجهاده فإن هذا لا يمنع من الاختلاف معه في بعض ما ذهب إليه، بل إن الشيخ نفسه قد دعا إلى الاجتهاد ونبذ التقليد، ولعل خلافي المحدود معه دليل على أننا ننتسب إلى مدرسة واحدة سائلاً المولى عز وجل أن ينفع بهذا البحث وأن يجزي الشيخ رضا عنا خير الجزاء.

وقد انتظم البحث في ثلاثة مباحث هي:
المبحث الأول: سلفية محمد رشيد رضا.
المبحث الثاني: الخطوط العريضة للمنهج السلفي.
المبحث الثالث: موقف محمد رشيد رضا من القضايا الدينية.

المبحث الأول: سلفية محمد رشيد رضا:

يؤكد الشيخ محمد رشيد رضا في كتبه على انتمائه للمنهج السلفي واعتزازه بالسلف الصالح، يقول في تفسيره: "وينبغي أن تعلم أيها القارئ المؤمن أن من الخير لك أن تطمئن قلباً بمذهب السلف ولا تحفل بغيره، فإن لم يطمئن قلبك إلا بتأويل يرضاه أسلوب اللغة العربية فلا حرج عليك، وأئمة علماء السلف قد تأولوا بعض

(*) دكتوراه في أصول الدين، أستاذ مساعد، جامعة الزرقاء الأهلية، الأردن.

obeikandi.com

الظواهر كما فعل الإمام أحمد وغيره في آيات المعية وآخرون في غيرها"[1].وفي معرض حديثه عن التنزيه يقول: "طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه النقل كقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى: ١١). وقوله عز وجل: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ (الصافات: ١٨٠)، وتفويض الأمر لله تعالى في فهم حقيقة ذلك"[2]. ويؤكد على مرجعية السلف عنده وإعجابه الشديد بابن تيمية وتلميذه ابن القيم فيقول: "ولا نعرف في كتب علماء السنة أنفع في الجمع بين النقل والعقل من كتب شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى، وإنني أقول عن نفسي: إنني لم يطمئن قلبي بمذهب السلف تفصيلا إلا بممارسة هذه الكتب"[3]. ويؤكد على انتمائه بوضوح فيقول: "إنني والحمد لله على طريقة السلف وهديهم عليها أحيا وعليها أموت إن شاء الله تعالى"[4]. هذه السلفية التي اصطبغ بها الشيخ هي من باب الوضوح وليس من باب التعنت للآراء. وهي القناعة الراسخة التي جاءت بعد بحث ودرس وهضم لما بين يديه من آراء وفحص للأدلة.

ولم تتناف سلفية الشيخ مع معاصرته لما يدور حوله من أحداث ومشكلات أبدى فيها رأيه بوضوح أيضاً، سواء كانت من مسائل الفقه أو مجريات الأحداث السياسية التي عصفت بالأمة في بداية هذا القرن، من انهيار للخلافة وسيطرة استعمارية وتقسيم لأرض العرب والمسلمين ودخول الأخطبوط الصهيوني في جسم أمة الإسلام. فالسلفي الحقيقي هو الذي يتمسك بروح ما جاء عن السلف كمنهج يتعامل به مع مستجدات الأمور، وليست السلفية حرفية التقليد لما ورد عن السلف الصالح في مختلف المجالات.

---

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٢٥٣/١، دار المنار، القاهرة، ١٩٥٤.

(٢) المرجع السابق، ٢٥٢/١.

(٣) المرجع السابق، ٢٥٣/١.

(٤) المرجع السابق، ٢٥٢/١.

المبحث الثاني: الخطوط العريضة للمنهج السلفي:

يلحظ المتبع للمنهج السلفي من خلال تنظيرات رموزه عبر التاريخ خطوطا عريضة مشتركة تجمعها قاعدة كبرى وهي "اتباع السلف الصالح " ونبذ ما يخالفهم والاعتقاد بأنهم أهل الخيرية وأن السير على منوالهم واتباع طريقهم هو الطريق الوحيد للنجاة.

وقد تفرّع عن هذه القاعدة موقف واضح في موضوع الصفات حيث يقوم المنهج على الإيمان بهذه الصفات وإثباتها والإيمان بها من غير تأويل ولا تعطيل، وأن النفي لا يتعارض مع الإثبات، لأن النفي عام ﴿ليس كمثله شيء﴾ فبينما الإثبات هو التوقف عند حدود ما ورد ﴿وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١). ويرفض النهج السلفي البدع بشتى أنواعها ومجالاتها؛ لأن الخير كله في الاتباع وليس في الابتداع، كما يشن المنهج السلفي هجوما على دعاة الولاية الذين يترزقون من خلال دعاواهم فيخلطون الحق بالباطل ويمزجون الزهد بالخرافة، وهذا المنهج يفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ويرفض الجمود والتعصب المذهبي، مع احترام وتقدير شيوخ المذاهب الفقهية الذين رفضوا أنفسهم فكرة التقليد التي ألغت الاجتهاد، وهو الذي يعطي الحيوية لهذا الدين عبر الزمان والمكان. ويقف هذا المنهج عند مسألة الشفاعة والتوسل، فلا شفاعة إلا بإذنه والتوسل يقف عند حدود ما ورد في النص من توسل بالأسماء والصفات والعمل الصالح.

ويشن السلفيون هجوما على علم الكلام باعتباره خروجا على النص وتجاوزا عليه، واتباعا للفلسفة المستوردة وفي مقدمتها الفلسفة اليونانية. ويؤكدون على مكانة العقل وأنه لا يتعارض مع النقل، فالعقل الصريح والنقل الصحيح لا يمكن أن يتعارضا بحال من الأحوال، فالعقيدة تؤخذ بالعقل كأساس ولهذا جاءت النصوص تدعو إلى التعقل والتفكر، لكن ذلك العقل لا يحكم على تفاصيل المعتقد بل تتلقى بالإيمان والطمأنينة والتسليم.

والإيمان عند السلف اعتقاد وقول وعمَل لا انفكاك بينها، بل لا بد منها جميعا، وإن كانوا لا يكفّرون أحدا من أهل القبلة حتى لو كان فاسقا غير مستحل لما يرتكبه من مخالفات.

ويقرر السلفيون عقيدة القدر لأن القدر ركن من أركان الإيمان فلا بد من التسليم بأن الأمور مقضية ولكنها في علم الله، وكل ما هو مطلوب منا السعي وإننا محاسبون على كسبنا، وإن الله تعالى لا يظلم أحدا.

ويؤمن السلفيون أن هناك تأويلا لا بد منه ولكنهم لا يتوسعون فيه، حتى لا يتم تجاوز ما ورد من اعتقاد عن السلف، ويقررون أن النصوص الشرعية فيها من المتشابه ولكنه قليل محدود.

ويتفاوت السلفيون في مسألة "الإكراه في الدين" فهم وإن كانوا جميعا يقررون قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦) إلا أنهم يتفاوتون في هذه الآية مع آيات الجهاد.

هذه بعض الملامح الكبرى للمنهج السلفي وفيها تفصيلات ومحطات جزئية. وإذا كنا نقرر أن الشيخ محمد رشيد رضا من أتباع هذه المدرسة فلننظر أين يقف من هذه المسائل؟!

المبحث الثالث: موقف رشيد رضا من القضايا الدينية:

أولاً– الإيمان:

اختلف العلماء على أقوال في موضوع"الإيمان"، فمنهم من فسّره بالتصديق، ومنهم من جعله الاعتقاد بالقلب والقول باللسان، وذهب أهل السلف إلى أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وهذا هو قول الشيخ محمد رشيد رضا يقول في تفسيره: "وقالوا في قوله تعالى: ﴿فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ (آل عمران: ١٦) أنهم رتّبوا طلب المغفرة والوقاية من النار على الإيمان، فدل ذلك على أن الإيمان وحده غير كاف في

استحقاقهما من غير توقف على العمل الصالح . وأقول قد يصح هذا إذا أريد مغفرة الشرك السابق على الإيمان وما تبعه من الذنوب والوقاية من الخلود في النار بذلك ، فإن الإسلام يجبُّ ما قبله كما ورد، ولا يمكن أن يصحّ إذا أريد به أن الإنسان قد يكون مؤمنا ولا يعمل صلاحا بل يكون منغمسا في المعاصي والخطايا ثم يكون مستحقا للمغفرة والوقاية من العذاب، فإن العقل والنقل يحيلان هذا الفرض.. وما الإيمان إلا الاعتقاد اليقيني الراسخ في العقل المهيمن على القلب، ولا عمل إلا عن فكر من العقل أو وجدان من القلب"[1].

إن تفسير الإيمان بمجرد التصديق لا يصح عقلا ولا شرعا، فالتصديق عمل قلبي ولا سبيل إلى الكشف عمّا قي قلوب الناس بل لا بد من ترجمة ما في القلب إلى سلوك الجوارح بدءا بجارحة اللسان ومن ثم بقية الجوارح، ولهذا قالوا: "إن الإيمان هو ما اعتقده القلب ونطق به اللسان وعملت به الجوارح." إن تفسير الإيمان بالتصديق قال به بعضهم كما قال صاحب جوهرة التوحيد[2]:

وفسر الإيمان بالتصديق ولا نطق فيه الخلف بالتحقيق

وقد انتقل هذا المعنى إلى عامة الناس وصار واحدهم إذا سئل عن أية مخالفة يرتكبها بأن الإيمان في القلب ويدعي أنه صاحب إيمان قوي وكبير.

إن النهج الإسلامي في التعرف على هوية الاعتقاد القلبي هو تتبع السلوك، فقد أكد القرآن الكريم على أن الإيمان يرتبط بالعمل لا انفكاك بينهما ﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾ (البقرة: ٢٥)[3]. وأرشدنا النبي ﷺ إلى أسلوب التعرف على المؤمنين

(١) تفسير المنار، ٣/٢٥٠.

(٢) الباجوري، إبراهيم، شرح جوهرة التوحيد، مكتبه الغزالي، حماة، سورية، ١٩٧٢م، ص٦٧.

(٣) هناك آيات كثيرة ربطت الإيمان بالعمل من أجل ترسيخ هذه العقيدة عند المسلمين.

بقوله: "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان"[1]، ومفهوم المخالفة لهذا النص هو: لا تشهدوا بالإيمان لمن لا يعتاد المساجد.

إن العمل في نظر منهج السلف جزء من الإيمان قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع أيمانكم﴾ (البقرة: ١٤٣)، فقد نزلت في تساؤل المؤمنين عن حكم الصلاة التي صلوها إلى بيت المقدس، فكانت الآية جواباً لهم على سؤالهم مؤكدة أن الصلاة إيمان، فهم يسألون عن الصلاة التي صلّوها، والآية تجيبه بتعبير الإيمان لبيان أهمية الصلاة في الإسلام وللتأكيد على عقيدة أن العمل من الإيمان.

وقد يقول البعض إن العمل من مستلزمات الإيمان وليس من ذات الإيمان وماهيته! نقول: هذا رأي من الآراء المقدّرة، لكن الموروث عن الصحابة رضوان الله عليهم هو أن الإيمان يشمل العمل، والمنهج السلفي يقوم على الاتّباع، ثم إننا نتساءل عن الفائدة المرجوة من القول بأن العمل مستلزم للأيمان، هل الغرض عدم فتح المجال لتفكير الناس المقصرين في أعمالهم؟! إذا كان كذلك فإننا، وإن اعتقدنا أن الإيمان يشمل العمل لكننا لا نسمح لأنفسنا أن نكفر أحداً يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولهذا فإن النبي ﷺ غضب من فعل أسامة حين قتل أحد المشركين لما وقع تحت سيفه فتشهّد فلم يتركه أسامة بل قتله فقال له عليه السلام: "أقتلته! أين تذهب بـ لا إله إلا الله يوم القيامة"[2].

نعم إن منهج السلف يقوم على الحكم على الظاهر والله يتولى السرائر، لكن ذلك لا يمنع من التأكيد على أن العمل جزء من الإيمان خاصة أننا نعيش في زمن كثر فيه العصيان وانتشرت الفاحشة الظاهرة وتجاذبت شباب المسلمين مذاهب وملهيات فكان ولمواجهة هذا الانفلات كان منهج السلف هو الأنسب للتأكيد على أن الدين ليس

(١) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٣/٦٨و٧٦.

(٢) رواية البخاري ومسلم وأحمد. انظر المسند ٥/٢٠٠ والبخاري مع الفتح ١٢/١٩١.

بلهو ولا لعب بل هو إيمان وعمل وجد ومثابرة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ (الزلزلة: ٧-٨).

ويؤكد الشيخ محمد رضا على هذا المنهج السلفي فيقول: "ولقد بينا لكم مراراً أن فرقا بين إيمان الإذعان وبين ما يسميه الإنسان إيماناً واعتقاداً"[١]. ويقصد بالإذعان العمل والسلوك، ولهذا قال في موضع آخر: "الإيمان إيمانان: إيمان لا يعدو التسليم الإجمالي بالدين الذي نشأ فيه المرء أو نسب إليه، ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه. وإيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان متمكنة في العقل والبرهان، مؤثرة في النفس بمقتضى الإذعان ، حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح في الأعمال بحيث يكون صاحبها خاضعا لسلطانها في كل حال.. أما الإيمان الأول فهو صوري فقط فلا قيمة له عند الله تعالى؛ لأنه تعالى لا ينظر إلى الصور والأقوال ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال.. هذا الذي قررناه.. وهو مذهب السلف الصالح"[٢].

ثانياً- التقليد:

يرفض المنهج السلفي التقليد في العقيدة والأحكام وقد تحدث الشيخ محمد رشيد رضا عن التقليد مطولا وهاجمه هجوما شديدا ومما قاله: "وأما المؤمنون حقا فإنهم يوحدون الله تعالى ويخصونه بهذا الحب كما يوحدونه بالتشريع بمعنى أنهم لا يأخذون الدين إلا عن الوحي ولا يفهمونه إلا بقرائن ما جاء به الوحي، وإنما الأئمة والعلماء ناقلون للنصوص ومبينون لها.. فهؤلاء المؤمنون يسترشدون بنقلهم وبيانهم ولكنهم لا يقلدونهم في عقائدهم ولا عبادتهم ولا يأخذون بآرائهم في الدين"[٣]. فالتقليد في العقيدة مرفوض؛ لأن ذلك فعل المشركين قال تعالى: ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا

(١) تفسير المنار، ١٤٤/١.

(٢) المرجع السابق، ٩٩/٣.

(٣) المرجع السابق، ٧٠/٢.

على آثارهم مهتدون﴾ (الزخرف: ٢٢). وقد أدى التقليد في العقيدة إلى الجهل بها ومخالفة قوله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ (محمد: ١٩)[١]. وأدى التقليد في الفقه إلى توقف حركة الاجتهاد أو ضعفها وإلى نزاع كبير بين أتباع المذاهب خلافا لما عليه حال العلاقة بين الأئمة، يقول الشيخ: "ولكن رؤساء التقليد حالوا بين المسلمين وبين كتاب ربهم، بزعمهم أن المستعدين للاهتداء به قد انقرضوا ولا يمكن أن يخلفهم الزمان لما يشترط فهم من الصفات والنعوت التي لا تتيسر لغيرهم...إن أهل القرنين الأول والثاني لم يكونوا يقلدون أحدا أي لم يكونوا يأخذون بآراء الناس وأقوال العلماء بل كان العامي منهم على بينة من دينه يعرف من أين جاءت كل مسألة يعمل بها من مسائله"[٢].

ربما كان هذا الكلام الذي يقوله الشيخ ينطبق على فئة محدودة يعرفها هو، أما الأعم الأغلب فلا يقول هذا إطلاقاً؛ إذ لا يجوز لمسلم أن يدّعي أن المسلمين لا يرغبون الهداية بالقرآن، فإن أي مسلم يرغب بذلك، وينال أثناء تلاوته من الهداية وفقا لمستواه العلمي ومكانه الإيماني قال تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ (القمر: ١٧). وإذا كان القرآن لهداية الناس جميعا فإن المسلمين هم أقرب لهذه الهداية قال تعالى: ﴿فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ (ق: ٤٥). أما حديث الشيخ عن شروط الاجتهاد فإنني أضم صوتي إلى ضرورة التمسك بالشروط الأساسية دون الشكلية، فقد جعل المقلدون هالة على شروط الاجتهاد للحيلولة دون اجتهاد أحد، ونحن مع فطرة الإسلام ولسنا مع التعقيد، مع الاجتهاد ولكننا بالوقت نفسه لسنا مع الفوضى. إن إسناد مهمة الاجتهاد إلى كل أحد يؤدي إلى فوضى دينية عارمة، وربما وقعت الفتن بين الناس وفي بيوت الله؛ إذ وجد (مجتهدون) لا ينطلقون في اجتهاداتهم من قواعد سليمة، فينقدون من سبقهم دون وعي.

---

(١) قال في جوهرة التوحيد: [إذ كل من قلد بالتوحيدِ ... إيمانه لم يَخْلُ من ترديدِ].

(٢) تفسير المنار، ٨١/٢.

وعلى الصفحة المقابلة وجدنا من يقدّس النص الفقهي ويقّدمه على الآية والحديث بدعوى أن الأئمة قد درسوا الآيات والأحاديث وقدموا الخلاصة الفقهية؛ وبالتالي فإن النص الفقهي دليل بحد ذاته!! وحفظت هذه النصوص الفقهية وأصبحت هي الأدلة، بينما هي التي تحتاج إلى أدلة، وأصبح الواحد من المقلدين لا يغادر مذهبه حتى وإن أوضحت له الدليل وقدمت له الحجة. يقول الشيخ محمد رشيد رضا: ".. ولولا أن المسلمين انقسموا إلى مذاهب، عُني أهل كل مذهب منها بإثبات مذهبهم وتأييده، وإبطال مخالفه وتفنيده لزال هذا الخلاف وعرف الأكثرون الحق صورة ومعنى"[1].

ويحدثنا الشيخ عن موضوع الخلاف وآثاره فيقول:

"وتاريخ بغداد مملوء بالفتن بين الشيعة وأهل السنة، وبين الشافعية والحنابلة، وكان أشد الخلاف بين هؤلاء على الجهر بالبسملة في الصلاة يسفكون الدماء لذلك، ولا ينسين الراجع إلى التاريخ الفتنة بين الشافعية والحنفية.. فقد كان ذلك من أسباب خراب مرو عاصمة خراسان"[2]. فهذه الخلافات لم تكن ضمن مسار منطقي تحترم فيه وجهات النظر باعتبارها محاولة للوصول إلى الأصوب، وإذا لم يكن الأمر كذلك فإن النتيجة ستؤول إلى النزاع والصراع وذهاب الريح والفشل.

ورأى الشيخ رضا أن أصحاب التعصب المذهبي يسيئون إلى أئمتهم بهذا التعصب. حيث يقول: "... فبالله كيف يُصدق أن يكون الإمام الشافعي مثلا مصيبا في كل ما خالف به غيره؟ و إذا كان الصواب في بعض المسائل الاجتهادية مع غيره، فكيف يعقل أن يمر أكثر من ألف سنة على فقهاء مذهبه ولا ظهر لهم شيء في ذلك فيرجعوا عن قوله إلى ما ظهر لهم أنه الصواب من مذهب غيره كأبي حنيفة أو مالك؟ وهذا ما يقال في أتباع كل مذهب"[3].

---

(١) تفسير المنار، ٢٠٢/٣.

(٢) المرجع السابق، ١١/٣.

(٣) المرجع السابق، ٢٤/٤.

وهذا من الشيخ قول حسن، فالإمام لا يدعي العصمة ولا يدعي الكمال ولا الإحاطة، فهو من البشر الذين يتصفون بالنقص والسهو والنسيان والخطأ، فمن أراد نصرة إمام فلينصح له بتكميل النقص وتصويب الخطأ وهذا بالطبع لا ينقص من مكانة الإمام بشيء.

إننا نؤيد ما يوجهه الشيخ من نقد للمقلدين سواء في العقيدة أو الفقه ولكننا نحب أن نوضح أن الاجتهاد الفقهي يحتاج إلى أهله ومن المؤكد أن عامة الناس ليسوا أهلاً للاجتهاد، ولكن هذا لا يمنعهم من السؤال عن العلم وتفاصيله لأن طلب العلم فريضة، ولأننا ننظر إلى كل باحث عن العلم على أنه مشروع عالم في المستقبل، فمرحلة الطلب تتبعها مرحة النقل ثم مرحلة النقد والاجتهاد، فمن وجد في نفسه العزم فلا بد من تشجيعه، أما الذين يقلبون المعادلة ويستعجلون المراحل فإنهم مخطئون واهمون والقاعدة الشهيرة تقول: "من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه".

ويجب أن يفهم المقلدون وناقدوهم هذه المعاني، يقول الشيخ في حق المقلد: "والمقلد لا ينظر في آية ولا دليل ولا في فائدة ما هو فيه والمقارنة بينه وبين غيره، فهو أعمى لا يبصر أصم لا يسمع أغلق القلب لا يعقل"[1]. ويقول: ".. وأين أهل التقليد من هدى القرآن؟ هو يذكر لنا الأحكام بأسلوب يعيدنا للعقل ويجعلنا من أهل البصيرة وينهانا عن التقليد الأعمى، وهم يأمروننا بأن نخر على كلامهم وكلام أمثالهم صماً وعمياناً"[2]. ولم ينس الشيخ أن يبيّن أن الأئمة الأعلام ضد التقليد الأعمى بل هم مع التبيّن ولهذا روى أقوال الأئمة الأربعة في النهي عن تقليدهم.

ويلفت نظرنا إلى أن التقليد الحقيقي للأئمة يقتضي السير على نهجهم يقول الشيخ: "إن الاقتداء بالأئمة يقضي على صاحبه بأن يعرف سيرتهم وطريقة أخذهم عن ربهم

(١) تفسير المنار، ١٧/٢.

(٢) المرجع السابق، ٤٥٣/٢.

ونبيهم وأصول استدلالهم، وهؤلاء المقلدون لا يعرفون ذلك"[1]، ويرى الشيخ أن التقليد يسبب ضعفاً للإسلام حيث تقصر الهمة عن طلب العلم وتزداد الفرقة والاختلاف: ".. المقلدين حتى أن من يأخذ الإسلام عنهم يراه غير الحنيفية السمحة المبنية على أساس اليسر وموافقة الفطرة، يراه ديناً لا يكاد يحتمل من شدة والعسر وكثرة التكاليف، والله ورسوله بريئان من كل هذه الزيادات.."[2].

وناقش الشيخ أدلة المقلدين الذين استدلوا بقوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (النساء: ٥٩)، حيث بيّن أن طاعة أولي الأمر إنما تكون في طاعة الله ورسوله وفي ترك التقليد الذي نهى عنه الأئمة أنفسهم[3]، وبين أن التقليد يتعارض مع التدبر الذي أمرنا الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ (النساء: ٨٢).

ثالثاً– الشفاعة:

الشفاعة من الموضوعات الأساسية في العقيدة الإسلامية وقد تحدثت عنها النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ (الأنبياء: ٢٨)، وفي الحديث "أن الشهيد يشفع في سبعين إنساناً من أقاربه"[4]. ومع وضوح قضية الشفاعة وفقا للنصوص من الكتاب والسنة، إلا أن قوما اختلط عليهم الأمر ولبس عليهم إبليس فولجوا أبوابا شركية وبدعية مما دفع علماء السلف إلى الدفاع عن العقيدة الصافية بإيضاح الأمر ومهاجمة الشرك والخرافة، ومن هؤلاء الشيخ محمد رشيد رضا الذي يقول: "..وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده.. وهو روح الدين وكمال

(١) تفسير المنار، ١١٥/٢.

(٢) المرجع السابق، ٢١٩/٥.

(٣) المرجع السابق، ٢١٩/٥.

(٤) مسند أحمد ، ١٣١/٤. ورواه الترمذي وابن ماجه.

التوحيد الخالص الذي يرفع نفوس معتقديه، ومخلصها من رق الأغيار، ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين والشيوخ الدجالين، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين من الأحياء والميتين فيكون المؤمن مع الناس حرا خالصا وسيدا كريما، ومع الله عبدا خاضعا"[1]، وبيّن أن الناس في زمنه (بداية هذا القرن) يسمون دعاء غير الله توسلاً، فقد روى عن أهل فاس (المغرب) أنهم كانوا يلجأون إلى قبر (وليهم إدريس) يستغيثونه ويستفتحون به على الفرنسيين!! يقول الشيخ: "فأي نصيب من هذا الدين للذين يجعلون أمر العباد وتدبير شئون الكون لطائفة من أصحاب القبور أو الأحياء الذين يلقبون بالمشايخ والأولياء فيزعمون أنهم ينصرون ويخذلون ويسعدون ويشقون ويميتون ويحيون ويغنون ويفقرون ويمرضون ويشفعون ويفعلون كل مايشاؤون"[2]، وهذا الذي يرويه الشيخ كان ولا يزال يعم أغلب الأقطار وكلما انتشر الوعي الإسلامي والتعليم قلّت مساحة الخرافة والشرك، ولعل قبور الأولياء والصحابة والصالحين والأنبياء في هذه الأيام مرتع خصب للأعمال الشركية التي تمارسها العامة دون قصد يقول الشيخ رضا: "..فالشرك أنواع.. وأشدها وأقواها ما سماه الله دعاء واستشفاعاً وهو التوسل بهم إلى الله وتوسيطهم بينهم وبينه تعالى، فالقرآن ناطق بهذا وهو المشهور في كتب السير والتاريخ فهذا المعنى هو أشد أنواع الشرك وأقوى مظاهره التي يتجلى فيها معناه أتم التجلي وهو الذي لا ينفع معه صلاة ولا صيام ولا عبادة أخرى"[3]، وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ (الأنعام: ٢٢-٢٣)، قال: "فهم عندما يكذبون ينكرون شركهم إما لاعتقادهم أن ما كانوا عليه ليس شركا وإنما هو استشفاع وتوسل إلى الله بمن اختار من خلقه، وإما مكابرة وتوهما أن ذلك ينفعهم ويدرأ عنهم العذاب، عند ذلك يشهد

(١) تفسير المنار، ٦٠/١.

(٢) المرجع السابق، ١١٩/٤.

(٣) المرجع السابق، ٨٣/٥.

عليهم الأنبياء والمرسلون أنهم لم يكونوا متبعين لهم فيما أحدثوا من شركهم"[1]. وإنني أرى رأي الشيخ الجليل مستغربا ومستهجنا ومنكرا فعل هؤلاء الذين خاطبهم الله تعالى بقوله: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ (البقرة: ١٨٦). وما أروع هذه الآية الكريمة التي تميزت عن الآيات التي ورد فيها السؤال والتوجيه للنبي ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾ (البقرة: ٢٢٠)، ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ (البقرة: ٢١٥)، ﴿يسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾ (البقرة: ٢٢٢)، لكن آية الدعاء لم يرد فيها (قل) بل أخبر الله تعالى مباشرة عن نفسه فأسقط (قل) ليقول لنا أن الدعاء مباشرة إلى الله فلسنا بحاجة إلى وسطاء ولا كهنوت؛ لأن القضية قضية دعاء واستغفار فلا يجوز أن يطلع على دعاء العبد إلا ربه، ولا يجوز أن يحول بين العبد والمغفرة عبد آخر أيا كانت مكانته، وانظر إلى ما جرى ويجري في الكنيسة حيث يقف وسيط بين العبد والرب من أجل المغفرة ويحصل الجثو ويفضح الإنسان نفسه أمام مخلوق آخر ربما كان أكثر عصيانا ممن جثى بين يديه.

ورحم الله ابن تيمية الذي كتب رسالة مفيدة سماها (الواسطة بين الحق والخلق) وخلاصة ما فيها أنه لا واسطة بين العبد وربه في الطلب والدعاء والاستغفار وإنما الواسطة تكون في تلقي الوحي وتبليغ شرع الله، وهي مهمة الرسل ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ (النحل: ٤٤).

قال الشيخ رشيد رضا: "قول السائل لله تعالى: أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم أو بجاه فلان أو بحرمة فلان يقتضي أن هؤلاء لهم عند الله جاه وهذا صحيح.. ولكن ليس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضي إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك، بل جاههم ينفعه إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله أو تأسى بهم فيما سنّوه للمؤمنين وينفعه أيضاً إذا دعوا له وشفعوا فيه، فأما إذا لم

(١) تفسير المنار، ١١١/٥.

يكن منهم دعاء ولا شفاعة ولا منهم سبب يقتضي الإجابة و لم يكن مستشفعاً بجاههم و لم يكن سؤاله بجاههم نافعاً له عند الله بل يكون قد سأل بأمر أجبني عنه ليس سبباً لنفعه.. فإذا لم يكن سؤاله بجاههم نافعا له عند الله)[1]. وأرى أن الأصل في تناول الموضوع أن هذه الصيغة في الدعاء لم ترد عن النبي ﷺ وبالتالي فإننا في غنى عنها ولسنا محتاجين إليها؛ لأن الدعاء مخ العبادة ونحن مقيدون بما ورد، وما زاد على ذلك فهو من البدع المنهي عنها شرعا وبخاصة أننا نرى تجاوزات ترافق هذه الصيغة من الدعاء مما يوصل إلى الشرك بالله تعالى. وإذا كان من أعطى الجاه يطلب منا أن ندعوه مباشرة فلماذا نطلب منه بواسطة؟! هل جاه الوجهاء يفرض على الله أن يجيب الدعاء ويحقق الطلب؟! أليس هؤلاء من الأموات الذين هم محتاجون لدعاء الناس لهم لانقطاع عملهم عن الدنيا؟! إن الأحياء هم الذين ينفعون الأموات وليس العكس. ألم يقرأ هؤلاء المتوسلون المستشفعون الأحاديث النبوية التي أوضحت جاه النبي محمد ﷺ ومكانته عند الله تعالى؟! ألم يعلموا أن النبي عليه السلام قد قال لعمر بن الخطاب: "لا تنسانا من دعائك يا عمر" نعم المسلم يدعو لأخيه المسلم وبخاصة أن دعوته لأخيه بظهر الغيب مستجابة، ولا يكون الدعاء من صاحب المكانة الأعلى فقط بل يكون من الطرفين ولو كان فقط من صاحب المكانة الأعلى لما طلب عليه السلام من عمر أن يدعو له.

إن من أجاز له الله تعالى الشفاعة يشفع، أما من لا يأذن له فكيف يشفع وعند من؟! لقد طلب الأعمى من النبي ﷺ أن يدعو له كما طلب الصحابة منه الاستسقاء ثم استسقوا بالعباس وهذا كله جائز؛ لأنه في مقدور البشر أن يدعو بعضهم لبعض، وأما الاستسقاء فالمقصود به أن يتقدم خير الناس ليؤم القوم لعل الله تعالى يقبل دعاءه فيغيث الناس.

---

(١) تفسير المنار، ٣٣٤/٤.

لقد أسقط الإسلام القسم بالمخلوقات؛ لأن تعظيمها لا يجوز فالله تعالى هو (العلي العظيم)، يقول الشيخ رضا: "القسم بالمخلوقات لا يجوز على المخلوق فكيف على الخالق"[1]، إن عقيدة الشفاعة والتوسل قد أدخلت الناس الجهال في متاهات وأوصلت بعضهم إلى أبواب الشرك، ولهذا فإن دعوة الشيخ رضا وأمثاله محل تقدير؛ لأنها تستهدف العودة إلى العقيدة الإسلامية الصافية الناطقة بالتوحيد والداعية.

رابعاً– البدع:

يقول الشيخ: "فليت شعري هل يعتبر المسلمون.. ويستعدون باتباع سنته واجتناب جميع البدع والتقاليد الدينية التي لم تكن في عهده"[2]، إن هذا القول عقيدة في المنهج السلفي، إذ إن الخير في الاتباع، والشر في الابتداع، فالإسلام الذي رضيه الله تعالى لنا هو الدين الكامل ولهذا كانت كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. ولقد توزعت البدع في الأقطار كما توزعت من حيث المجالات، فهناك بدع اعتقادية ولهذا ذكر الشيخ: "الفرق التي وسمت بالابتداع كالمعتزلة والخوارج والشيعة"[3]. وبِدع تولّى كَبرها القبوريون وبعض المتصوفة ودعاة التمسح بالأضرحة والتوجه إليها. وبِدع سلوكية، يقول الشيخ: "وقد ذكر الأستاذ الإمام عند شرح مفاسد الموالد هنا أن بعض كبار الشيوخ في الأزهر دعوه مرة للعشاء عند أحد المحتفلين فأبى فقيل له في ذلك فقال: إنني لا أحب أن أكثر سواد الفاسقين فإن هذه الموالد كلها منكرات"[4]، وكلها في المحصلة بدع مرفوضة وإن كانت تختلف من حيث الحكم الشرعي في مرتكبها، فالبدع العقائدية قد تعني الكفر أو الشرك كمن يعتقد بنقص الشريعة أو يؤول النصوص إلى مالا تحتمله بحال من الأحوال أو يعتقد بنفع شخص مقبور ميت وضرره.

---

(١) تفسير المنار، ٣٣٦/٤.

(٢) المرجع السابق، ١١٠/٥.

(٣) المرجع السابق، ١١/٤.

(٤) المرجع السابق، ٧٥/٢. ويقصد الإمام الشيخ محمد عبده.

بينما البدع السلوكية قد تكون الجهل أو بغير قصد ولكنها في المحصلة تدخل صاحبها في الفسق، لا سيّما إذا أصر عليها.

إن البدع اليوم تنتشر في العالم الإسلامي ويجدر بدعاة الإسلام أن يحسنوا الدعوة إلى السُّنة ويحاربوا البدعة بالتي هي أحسن، بخاصة أننا على يقين أن أغلب ما نسميه بدعا إنما منبعه الجهل بالسنة، لذلك فإن العلاج يكون بنشر الوعي والإكثار من حلقات العلم وتحذير الناس من الابتداع، وليس بمصادمتهم وتفسيقهم والهجوم على ذواتهم.

خامساً– التأويل والمتشابه:

المتشابه هو المتماثل أو ما يشبه بعضه بعضا أو ما يلتبس فهمه ويحتمل أكثر من معنى. وقد اختلفت الآراء في المتشابه لكن القرآن الكريم أكد لنا وجود المتشابه بقوله تعالى: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ (آل عمران: ٧)، وبين موقف الذين في قلوبهم زيغ من أنهم ﴿فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ (آل عمران: ٧)، وقد اختلف العلماء قي قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يتذكر إلا أولوا الألباب﴾ (آل عمران: ٧) فمنهم من أكد من خلال هذه الآية أن المتشابه يعلمه الراسخون في العلم وإلا لما كانوا راسخين في العلم وبخاصة أنه ختم الآية بالتذكر وذكر أولي الألباب.

وفريق آخر اعتبر الوقوف عند لفظ الجلالة وقفاً لازماً، وعليه فإن الله وحده هو الذي يعلم المتشابه ولا يعلمه أحد سواه. وهو من الابتلاء الذي ابتلى الله تعالى به المؤمنين، ولهذا فإن الراسخين في العلم المتعمقين فيه، يؤمنون بالكتاب كله محكمه ومتشابهه، لأنهم تذكروا أن الحياة كلها ابتلاء فاستخدموا عقولهم وكانوا أولي ألباب لا يدخلون أنفسهم في مجادلات لا طائل تحتها. والحقيقة أن كلا الرأيين له وجاهته وقد مال الشيخ محمد رشيد رضا رغم سلفيته إلى الرأي الأول فقال: ".. والمتشابه ما يحتاج

في معرفته إلى التدبر والتأمل"[1]. وقال: "وقد يقال إنه ليس من مقتضى مذهب السلف أن يجعل كل ما يسند إلى الله تعالى من المتشابهات التي لا تفهم بحال ولا تفسر ولو بإجمال"[2]. ولا يمكن أن يكون هناك تدبر إذا كان المتشابه لا يعلمه إلا الله، وما دام هناك تدبر فإن هذا يقودنا إلى التأويل يقول الشيخ: "طريقة الخلف وهي التأويل يقولون: إن قواعد الدين الإسلامي وضعت على أساس العقل، فلا يخرج شيء منها من المعقول ، فإذا جزم العقل بشيء وورد في النقل خلافه، يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغي طلبه بالتأويل"[3].

ويقول أيضاً: "فنحن قد سمعنا بآذاننا شبهات على بعض الآيات والأحاديث لم يسهل علينا دفعها وإقناع أصحابها بصدق كلام الله وكلام رسوله إلا بضرب من التأويل وأمثال تقرّبها من عقولهم ومعلوماتهم أحسن التقريب"[4].

وهذا التأويل المقبول من الشيخ لا يعني قبول كل تأويل، فإن منه ما هو انحراف وشذوذ ولهذا قال: ".. وضرب الأستاذ الإمام لذلك مثلا: أحد الشيوخ المتفقهين سرق كتابا من وقف أحد الأروقة في الأزهر مستحلا له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به، وهو يحصل بوجود الكتاب عنده، وأنه قد يفوت النفع ببقائه في الرواق حيث وضعه الواقف إذ لا يوجد فيه من يفهمه مثله بزعمه، واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل ليس بقليل"[5]، نعم إن التأويل منه ما هو واجب ومنه ما هو تلاعب بالدين، فلا يعقل أن يفهم أحد قوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ (الإسراء: ٧٢)، على ظاهر اللفظ، إذ لا يعقل أن من كان أعمى في الدنيا

(١) تفسير المنار، ١٦٤/٣.
(٢) المرجع السابق، ١٦٣/٤.
(٣) المرجع السابق، ٢٥٢/١.
(٤) المرجع السابق، ٢٥٣/١.
(٥) المرجع السابق، ٦٦/١.

فهو أعمى في الآخرة، بل الحديث مختلف عما يظهر، فالأعمى الأول هو أعمى البصيرة والأعمى الأخير هو أعمى البصر.

أما التأويل الثاني فهو ضرب من ضروب التلاعب لصالح مذهب اعتقادي أو فقهي بروح متعصبة يتم بها ليّ أعناق النصوص، وهذا اعتداء على كتاب الله تعالى وسنة رسوله.

سادساً– العقل:

أعطى الإسلام العقل مكانة كبرى ولهذا جاءت الآيات الكريمة تؤكد على العقل واستخدامه كقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ (البقرة: ٧٦)، وقوله: ﴿إنّ في ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾ (الزمر: ٢١)، وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النّهى﴾ (طه: ١٢٨). بل شنّع على المشركين لعدم استخدامهم عقولهم قال تعالى: ﴿أوَلوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ (البقرة: ١٧٠)، يقول الشيخ معلقاً على هذه الآية: "فإن هذا حجة عقلية لا تنقض"[(١)]. ويقول: (ويقول: "القاعدة الثالثة والثلاثون: بناء أصول الدين في العقائد وحكمة التشريع على إدراك العقل لها واستبانته لما فيها من الحق والعدل ومصالح العباد وسد ذرائع الفساد"[(٢)]. وروى عن شيخه ذات المعنى بقوله: "قال الأستاذ: ولا بد في تحقيق الإيمان من التيقّن، ولا يقين إلا ببرهان قطعي لا يقبل الشك والارتياب، ولا بد أن يكون البرهان على الألوهية والنبوة عقليا، وإن كان الإرشاد إليها سمعيا، ولكن لا ينحصر البرهان العقلي المؤدي إلى اليقين في تلك الأدلة التي وضعها المتكلمون وسبقهم إلى كثير منها الفلاسفة الأقدمون.. وأقول: كان الأستاذ قد أطلق اشتراط البرهان العقلي هنا كما أطلقه في مواضع أخرى.. والحق أن اطمئنان القلب بما جاء به الرسول صلى الله عيه وسلم من غير تردد ولا اضطراب

(١) تفسير المنار، ٩١/٢.

(٢) المرجع السابق، ١٢١/١.

كاف في النجاة في الآخرة، وأن أفضل الأدلة ما أرشد إليه القرآن من النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق فبداهة العقل فيه كافية عند سليم الفطرة"[1].

ولا يفهم من آخر كلامه التقليل من أهمية الدليل العقلي، وإنما أراد لفت النظر إلى طمأنينة القلب بفطرة داخلية قد لا تخضع للمقدمات والنتائج المنطقية، بل هي ارتياح نفسي يعرفه كل واحد منا في داخله، ولكن ذلك لا يمنعنا من التزود بالأدلة العقلية لمزيد من الطمأنينة واليقين، فقد جاء في الكتاب العزيز على لسان إبراهيم: ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وما دعا إليه الشيخ من النظر في الأنفس والآفاق لا يمكن أن يتم إلا بمشاهدة الأدلة العقلية والعلمية الدامغة المبثوثة في سنن الله تعالى في الكون لهذا أمرنا الله عز وجل بالتفكر فقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩١).

سابعاً- القدر:

الإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان ومع ذلك بقي القدر مكاناً للجدل قديماً وحديثاً ولهذا رأينا الشيخ محمد رضا يجيب على تساؤلات الناس في القدر بقوله: "سأل سائل في الدرس: إذا كان الرزق مقدرا فعلام السؤال: فقال الأستاذ[2]: إذا كانت إجابتي أو عدمها مقدرا فلم السؤال؟ هذا لا يقال وإنما ينبغي أن يقال ما الحكمة في طلب الدعاء منا في هذه الآية[3] وغيرها من الآيات والأحاديث كحديث "الدعاء مخ العبادة"[4] والله تعالى يعلم ما في أنفسنا وما تنطوي عليه سرائرنا؟ قالت

(١) تفسير المنار، ٢٢٩/١.

(٢) أي الأمام محمد عبده.

(٣) الآية هي قوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداعِ إذا دعان﴾ (البقرة: ١٨٦).

(٤) مسند أحمد ، ٢٧١/٤.

الصوفية: إن المراد بالدعاء فزع القلب إلى الله وشعوره بالحاجة إلى معونته والتجاؤه إليه. ويحتجّون بما روي في قصة إبراهيم ﷺ من أن جبريل سأله قبل أن يلقى في النار: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا[1]. قال فادع الله قال حسبي من سؤالي علمه بحالي. أقول: ولكن ظاهر الآيات والأحاديث يدل على أن الدعاء مطلوب بالقول مع التوجه إلى الله بالقلب ومنه الأدعية المأثورة"[2]. إن كلام الشيخ رشيد رضا هو الصواب وليس كلام الصوفية؛ لأن سيد الخلق محمدا ﷺ كان يتوجه بالدعاء ورفع يديه يوم بدر[3]، ولا يجوز الاكتفاء بعلم الله بحاجة الإنسان، بل إن الطلب نفسه مطلوب، والله تعالى يحبّ أن يُدعى وأن تتحرك شفتا العبد بذكره ودعائه ولنتدبر قوله تعالى: ﴿أجيب دعوة الداعِ إذا دعان﴾ (البقرة: ١٨٦)، ومفهومه إذا لم يُدع فلا إجابة. نعم قدّر الله المقادير ولكن الدعاء والعمل والسعي جزء من قدر الله كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم قالوا له في طاعون عمواس: تفر من قدر الله؟ قال: أفر من قدر الله إلى قدر الله[4]. وحديث الخطأ والتوبة واضح "لو لم تخطئوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يخطئون يستغفرون"[5]، و "كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"[6].

ثامناً- علم الكلام:

هاجم علماء السلف الكلاميين الذين سلكوا نهج الفلاسفة وأدخلوا مصطلحات غريبة على القاموس الاعتقادي في الإسلام.

وهدف علماء الكلام إلى مقارعة الفلاسفة بلغتهم ومصطلحاتهم وذلك دفاعا عن العقيدة وحراسة لها، إلا أن هذا الهدف النبيل أوجد لنا في أمة الإسلام مشكلات

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير المنار، ١٧١/٢.

(٣) انظر سيرة النبي ﷺ لابن هشام، ٢٦٧/٢.

(٤) رواه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ.

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٢٣٨/٣.

(٦) المرجع السابق، ١٩٨/٣.

أدخلتنا في متاهات وصراعات ودماء، ويكفي أن أشير إلى قهر المعتزلة لمخالفيهم يوم تولى الخلافة المأمون وبدأ بإكراه الناس على آراء المعتزلة ومنها مسألة خلق القرآن التي فتن بها العلماء، وتعرضوا للأذى ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

ورفض الشيخ محمد رشيد رضا، باعتباره واحداً من أتباع المنهج السلفي، منهج الكلاميين، فهو يقول في تفسيره: ".. إن رسول الله ﷺ والصحابة بأجمعهم ما سلكوا في المحاجة مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتدقيقاتهم لا لعجز منهم عن ذلك، فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه"[1]. فهو يرفض هذا النهج لا انغلاقا ولا رفضا لخير يمكن أن نجلبه، ذلك أن سلبياته تفوق إيجابياته.

وبهذا يضم الشيخ صوته لقائمة علماء السلف من هذه الأمة الذين رأوا تفسيق علماء الكلام وبدعيتهم وضرورة محاسبتهم حتى لا تقع الفتنة بين الناس.

تاسعاً- التكفير:

لعل مسألة التكفير من أخطر المسائل الاعتقادية، فالمسلم حريص على دخول الناس في الإسلام لا طردهم وإبعادهم، والمسلم داعية وليس قاضيا يسجن ويقتل ويقطع وينفي ويغرّم، وخاصة في هذا الزمن الذي نحن فيه، حيث تغيب أحكام الإسلام عن التطبيق على صعيد الدولة.

وإذا كنا نتحدث عن تفرق المسلمين إلى شيع ومذاهب، فإن انتشار فكر التكفير بينهم ذو خطر عظيم، وقد شهدنا في عصرنا هذا شيئا من هذه الأفكار، مما يستدعي إظهار أقوال العلماء وإبرازها حتى لا يضل الناس وهم يدّعون الهداية.

---

(١) تفسير المنار، ٢٢٦/٣.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: " .. وهذه خاصة أهل السنة المتبعين للرسول ﷺ فإنهم يتبعون الحق، ويرحمون من خالفهم باجتهاده حيث عذره الله ورسوله، وأما أهل البدع فيبتدعون بدعة باطلة ويكفّرون من خالفهم"[1].

ويؤكد لنا أن جمهور أهل السنة ليسوا مع التكفير؛ إذ يقول: "ولم يكن أهل السنة يكفّرون واحدا منهم (يعني المعتزلة والخوارج والشيعة) ولا يعاقبونه على مخالفة الجمهور في بعض الآراء"[2].

ويروي عن شيخه محمد عبده تعليقا على قوله تعالى: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ (آل عمران: ١٦٧)، فيقول: "إنهم أقرب إلى الكفر ولم يقل أنهم كفار مع علمه بحالهم تأديبا لهم ومنعا للتهجم على التكفير بالعلامات والقرائن"[3]. ويعلق الشيخ رضا على كلام أستاذه فيقول: "يعني أن هذا الذي صدر منهم وإن كان من شأنه ألا يصدر إلا من الكافرين، لا يعد بحد ذاته كفرا صريحا في حكم الظاهر لاحتمال العذر والتأويل ولو سجل عليهم به ظاهرا لوجب أن يعاملوا معاملة الكفار، مع أنه ﷺ كان يعاملهم بعد ذلك معاملة المؤمنين... فليعتبر متفقهة زماننا الذين يسارعون في تكفير من يخالف شيئا من تقاليدهم وعاداتهم وإن كان من أهل البصيرة في دينه وإيمانه والتقوى في عمله ولم يكونوا على شيء من ذلك"[4].

إنها كلمة حق يجدر بالصحوة الإسلامية اليوم تدبرها، وخاصة أننا بدأنا نشهد حركات وجماعات تصف نفسها بالإسلامية تكفّر المجتمع وتدعو إلى العنف حتى وصلت بهم الأمور إلى تكفير دعاة إسلاميين، لأنهم اختلفوا معهم في الرأي، فاستحلوا

(١) تفسير المنار، ٢٠٥/٣.
(٢) المرجع السابق، ١١/٤.
(٣) المرجع السابق، ٢٢٨/٤.
(٤) المرجع السابق، ٢٢٨/٤.

أموال الناس ودماءهم ورأوا أن الصلاة في المساجد لا تجوز لأنها تتبع السلطة القائمة التي لا تحكم بالإسلام.

عاشراً- الإكراه في الدين:

من العلامات البارزة عند هذا الشيخ الجليل إيمانه بحرية الاعتقاد، يقول في تفسيره: "القاعدة العشرون: حرية الدين والاعتقاد ومنع الاضطهاد الديني ولو بالقتال حتى يكون الدين كله لله ، ومنع الإكراه في الدين وذلك قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ (البقرة: ١٩٣)، الفتنة اضطهاد الناس لأجل دينه بالتعذيب والقتل والنفي كما فعل المشركون بالمسلمين في صدر الإسلام" [(١)].

ويؤكد لنا الشيخ أن الإكراه على الدين إنما كان عند غيرنا بقوله: ".. إن أهل الكتاب كانوا أشد من المسلمين في حروبهم الدينية، وورد عنهم في الإكراه على الدين ما لم يرد مثله عند المسلمين. إن الإكراه على الدين منفي في الإسلام بنص القرآن، ولم يحارب النبي ﷺ أحدا من العرب ولا من غيرهم لأجل الإكراه على الإسلام، وإنما حارب دفاعا، وكيف يحاول الإكراه والله تعالى يقول له: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس: ٩٩).

إن المسلمين هم أكثر الناس تضررا بالإكراه ،والإسلام في غنى عن الإكراه لأن الإسلام بطبيعته يطالبنا بالإقناع والتعقل والتفكر، ولا يفخر الإسلام بأناس يساقون إليه كقطيع بالعصا والقوة، إنما يريد أناسا عَمَرَ الإيمان قلوبهم. وتأتي حرية الاعتقاد انسجاماً مع قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وقوله: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس: ٩٩)، ولو أكره الإسلام الناس على الدخول فيه لما وجدنا غير مسلم وبعد هذه الجولة في صفحات تفسير المنار وجدنا الشيخ محمد

(١) تفسير المنار، ١١٦/١.

رشيد رضا علما من أعلام الإسلام في القرن العشرين وهو في الوقت نفسه أحد رواد المدرسة السلفية، فقد جمع بين الأصالة والحداثة، وبين حبه السلف ومعالجته لقضايا عصره، فقد قاوم التقليد واجتهد، ونادى بالعقل واتبع، وحذّر من مخاطر الأمور وعرض لنا إسلاما حضاريا نفاخر به بين الأمم في بلاد العرب ينبوع الإسلام ومصدر حضارته.

إن سلفية الشيخ رضا سلفية متفتحة، فهي قائمة على الاحترام للسالفين وتقديرهم دون الوصول إلى تقديسهم. وهي سلفية الانفتاح على العصر دون الذوبان فيه، ولهذا كنا معه في سلفيته هذه بعيدا عن كل تشويه للإسلام باسم التمسك بمنهج السلف الصالح.

obeikandl.com